نظرات في النفس والحياة

— ١٨ —

تتمة نظرات جوتا

تنقسم حياة جوهان ولفجانج فون جوتا الى عهود : أولاً عهد العاصفة والشدة وهو عهد الاندفاع مع العاطفة والاستسلام للخيال وفيه ألّف (جوتز) و (ورتر) . ولو انه لم يكن مستسلماً كل الاستسلام كما سيتضح من تفسير (هتشنر) بالنون و (دودن) لمعنى مؤلفاته في ذلك العهد . ثم يأتي عهد رحلته الى ايطاليا وسكناه فيها وقد أكسبته الآثار القديمة ميلاً الى المذهب الكلاسيكي وزادت الأثر الذي كان قد اكتسبه بقراءة كتب القدماء . وبعد عودته بدأت صداقته لشيلر الشاعر وكان شيلر أشد ميلاً الى التعبير عن الجانب الثائر من النفس البشرية كما في قصة (وليام تل) و (الفسوص) و (دون كارلوس) و(عذراء أورليان) وهذا مذهب خلفه جوتا بعد تأليف (جوتز) و (أحزان ورتر) كما أن في قصص شيلر أناساً وصفهم بصفات الكمال الانساني بينما أناس قصص جوتا يتعثرون في أخطائهم ويتعلمون منها ومع ذلك كان جوتا متزناً فلم يحاول اطفاء ثورة النفس على مفاسد الحياة ونظمها . ولكنه مع ذلك كان يدعو الى تطهير النفس أولاً من شوائب الأحقاد والثأر قبل حمل شعلة الحرية المقدسة . وكذلك كان يفضل العمل المتدرج ويرى انه أنفع من الطفرة التي تؤدي الى التراجع والتقاعس والتقهقر والانتكاس .

ولعل آزانه هذا سبب نقد الأحزاب المتطرفة له . وفي كلماته نجده يحاول إبراز الحق الذي في الآراء المتناقضة ويرى أن من الحكمة أن لا يهمل الحق الذي يخالط الباطل . وهذا من شدة اعزازه للحق وصيانته له من الضياع في أي جانب كان بينما كان غيره اذا أراد محو باطل لا يصون الحق الذي يمازجه . ومن أجل هذه الصفة فيه قد يخال انه يتردد بين النقيضين ولا تردد له . ولعل هتشنر (بالنون) هو الناقد الذي فسره أحسن تفسير وتابعه ادوارد دودن . ومن تفسيرهما نرى ان ورتر في قصة (احزان ورتر) مثل الشاب الذي يعالج

احساساً شديداً لا يؤدي الى عمل نافع ثم هو يطلب المحال ويسوقه الخيال وكل هذه صفات مرض ونقص تؤدي الى الهلاك كما أدت الى هلاك ورتر. فهو لم يصف ورتر كي يكون بطلاً يحتذى بل وصفه للعظة والاعتبار وتجنب صفات نقصه. ولكن كثيراً من الشبان تشهروا به فهاكموا. ولعل سبب تشبههم به أن جوتا يكسو أخطاء الشاب ورتر وعيوبه جمال فنه وهو لو لم يكسه لاخطأ، لأن أخطاء الشباب وعيوبها مكسوة بطبيعتها جمال روح الشباب وهو جمال فني.

وفي قصة (وهلم مايستر) يتدرج الشاب وهلم من الانقياد للخيال الكاذب والعاطفة المحرقة وهما يستهويانه مرة بعد مرة. فيكون عمله وخلقه غير مطابقين لمقاصده فيتدرج بالتعلم من أخطائه وعيوبه الى العمل الصحيح المنتج والى فهم الأمور على حقيقتها بعد تضليل الخيال له تضليلاً طويلاً قد يضل معه القارىء اذا كان شاباً وقد يستهويه ذلك الضلال. ولكن جوتا لا يريد للشاب أن يتعلم كما تعلم وهلم مايستر من عيوبه وأخطائه اذ أن هذا يكلفه من الجهد والوقت ما هو أنفس وأطول من أن يضيع هكذا. ومن أجل ذلك رسم خطة تعليم تجنب الشبان مثل أخطاء وهلم.

وكذلك نرى في قصة (تاسو) الرجل الذي يستعبده الخيال ويكاد يهلكه لولا أن له صديقاً ينجيه. أما في قصة فوست فنرى فوست الذي استفحلت فيه روح التملك والسيطرة حتى تملك خطيبته وهو غير مالك لنفسه ولا مسيطر عليها وكاد يذهب ضحية الاغواء لولا انه ارتدع واتعظ وعصى ابليس (مفستو فيليس) في اللحظة الأخيرة. وبذلك نجا ولم يرد جوتا للناس أن ينقادوا لحب السيطرة كما انقاد فوست في أكثر حياته (ولو انه عرضه عرضاً فنياً مغرياً) بل هو يرى أن لا نجاة للعالم والأمم الا بأن يتعلم الآحاد والأمم ضبط النفس والقضاء على عاطفة حب التملك والتحكم.

وهكذا نجد لكل قصة من قصصه درساً وموعظة ويخطىء من يستهويه جمال الفن فلا يبحث عن الفكرة الفلسفية والمغزى المراد.

* * *

والرغم من هذه الثقافة العالية فقد اختلف النقاد فيه. فمنهم من أسقطه ومنهم، وهم الكثرة، من رفعه الى السماء مجد الفن والثقافة: قال (بورن): «لقد فضل جوتا الدعة والراحة على البطولة والآلام. ولكن الأبطال لا تردهم الآلام عن نصر الحرية ونقد مفاسد الحكومات والانتصار لشعوبهم كما فعل مونتسكيو وفولتير وروسو التعس الفقير المريض

الذي عاش بالرغم من ذلك حر الرأي، وملتون الذي لم يعنه فرض الشعر من محاربة الاستبداد »

وقال رمزل : « ان كل مؤلفات جوتا انما هو عرض لشخصيته في أحسن وضع فني . فالرجل مع خصوبة ذهنه وخياله ما كان يهمه غير نفسه واشباعها من كل احساس بمظاهر الجمال . وقد كان هم جوتا بدل تحرير العقل الألماني ان يحمل عقله وعقل قومه غير كل ثقافة وان يذاعب حضارة كل أمة تحت الشمس مداعبة الممثل الذي همه الترف واللذات والاثرة »

وقال جان بول ريختر : « عندما أردت أن أزور جوتا قيل لي انه الآن لا يعجب بشيء ولا يستحسن شيئاً وحتى نفسه التي كان يعجب بها أصبح لا يعجب بها . فسألت صديقاً لي ان يحولني الى حفرية متحجرة أقدمها له لعلّ غرابة شكلها تستدعي تنبهه لها . وفي أثناء الحديث ظلّ ساكتاً الى أن جاء حديث الفنون فقرأ لنا قصيدة له لم تنشر . وكنت أشعر أن صوته يحاول أن يدفع بحرارة نفسه كي تخترق غشاء الثلج المتجمد فوقه » وهكذا انفرد ضده وصفه به جليم في شبابه .

وقال كارليل « ان عصر جديد » ذلك العصر الذي يظهر فيه رجل حكيم عاقل يستوعب ويحمل نيوب عصره ويتغلب عليها ويشق لنفسه طريقاً في اتجاه وطريق كان لا يمكن اختراقها . وهذا هو ما صنع جوتا ، ومؤلفاته هي مرآة عصره الذي وصفه وأوضحه وفسره » .

وقال نيبرهر : « ان الألمان الآن يسمعون اسم جوتا بخشوع وإعجاب كما كان قدماء الإغريق يسمعون اسم هومر . وجوتا قد بلغ في قومه منزلة لم يبلغها أحد غيره . وبسبب مؤلفاته صارت الأمم الأخرى تهتم بالأدب الألماني وتحترمه » .

وقال أمرسون : « ليس في العالم شيء لم يهتم جوتا بدراسته وتفهمه . فهو مقرر يسجل كل أمر وظاهرة . وقد وصل في بحثه إلى حدود المجهول . ثم خطا خطوة وراءها وعاد سليماً كما كان قدماء الإغريق يقولون أن الاسكندر المقدوني وصل في فتوحه إلى حدود العالم ثم خطا خطوة وراءها » .

* * *

وفيما يلي تتمة ما أختير من كلماته مع بعض التعليق عليها : —

(١) مهما كانت حياة الإنسان حياة معتادة مألوفة ومهما كانت النفس راضية بهذه

الحياة فإن في النفس نزوعاً خفيًّا إلى مطالب أسمى ونزعات أرفع وأملاً للنفس من تلك الحياة المألوفة المضاعة . والنفس تبحث حولها عن وسائل تدني بها تلك المطالب وترضي بها تلك النزعات — وقرأ جوتا هذا بذكرني بقصة جون بوكان التي عنوانها (ملوك العرش) وهو يتخيل فيها ان ملوك ذلك العالم الموصوف قد حكم عليهم ان يهبطوا إلى هذا العالم الأرضي . وإن تعيش نفس كل ملك في نفس انسان من السوقة : وقد ذكر في المثل القديم ان نفس كل انسان تجمع بين قرد وأسد . وفي قصة جون بوكان ترضي النفس بالحياة المستعادة المأمونة حتى إذا تحركت نفس الملك التي فيها نزعت إلى مطالب عالية وأظهرت وسائل وسلوكات أسمى مما اعتادته .

(٢) كما تعلم الإنسان درساً هامًّا في الحياة عاقه الفقر الروحي عن الاستفادة منه كثيراً . ولكنه مع ذلك يكتسب ولو شيئاً قليلاً من الخبرة به . ولعلَّ هذا الفقر الروحي كما سماه جوتا أو العجز الدائم كما سماه مينكين الناقد الأمريكي هو سبب تخلف الانسان عن سائر العالم وسبب عدم الإستفادة منه أعظم فائدة كما وصف الأستاذ جون لسان هوكسلي وسبب اختلال حياة الناس واعترازهم بذلك الاختلال أو اعتزاز بعض المفكرين واعتقادهم أنه لو بطل الاختلال توقف نمو الإنسان الفكري . وهذا من باب جعل الانسان نقصه وعيبه مجلة وميزة . وهذه الصفة في الإنسان قاعدة عامَّة سيكولوجية كما أوضح جوتا في مقال سابق أي تحويله نقصه إلى مبدأ محمود .

(٣) قد يخطىء من يظن أن شرف النفس يعوق صاحبه لطيفة قلبه عن إدراك مكر الخبثاء . ولكن اعتقاد المرء هذا الظن قد يدعوه إلى الاسترسال وقلة الحيطة ، فينكشف أمره لذي شريف النفس ، حتى ولو كانت آراؤه محدودة كما أن مخالفة عمل الماكر لما ألفته نفس الشريف النفس تطلعه أيضاً على احتيال الماكر الخبيث .

(٤) لا يستطيع المرء أن يؤسس مثال كمال إلاَّ على أساس الأمور الواقعة الكائنة ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى الكمال غير المحدود إلاَّ عن طريق الأمر المحدود . وأما إذا حاول المرء تأسيس مثال الكمال على خياله غير المحدود لا على الأمور الواقعة المحدودة ضل سعيه وارداه الخيال واستعبده الوهم .

(٥) القوة التي تدعو المرء إلى التحكم والإثرة هي القوة نفسها التي لو شاء دعته إلى أن يملأ حياته جمالاً وحرية وأخاء فتم العالم هذه الأمور . ولكن عليه أن يوجه تلك القوة في نفسه إلى الجمال والحرية والإخاء توجيهاً مستأنفاً مستمرًّا مثابراً عليه .

(٦) إن الشعور الشديد في النفس إذا لم يُستخدَم كقوة لأداء عمل نافع كان مرضاً وأدّى إلى اختلال الحياة .

(٧) إن الخرافات جزء أصيل في النفس الإنسانية فإذا حاربناها فإنها تختفي حتى نظن أنها قد زالت . ولكنها تكمن في خبايا النفس حتى تجد فرصة فتظهر . (هذه النظرية لا تنطبق على جميع الناس . فهنالك أشخاص قهروا كل خرافة قهراً أبدياً فلا يمكن أن تجد في أنفسهم فرصة لكي تظهر — المقتطف)

(٨) إن الرجل الذي يتعلم بالفطنة الحدود والقيود التي ينبغي أن يتقيد بها ثم يلتزمها مختاراً غير مقهور يستطيع مع ذلك أن يصل الى الحرية . أما الرجل الذي يُستهتَر على التزام تلك الحدود والقيود قهراً فإنه قلما يصل إلى الحرية وهو إن وصل اليها وجد طعمها مرارة وألماً

(٩) لا تنال أمة ملكة الحكم على الحقائق حكماً صادقاً إلاّ إذا استطاعت أن تحكم على نفسها حكماً صادقاً . [illegible] حكماً صادقاً . وهي لا تستطيع الحكم على نفسها إلاّ بعد مراحل من الثقافة والنضج والوعي الصادق .

(١٠) إن مقاومة الحقائق الفكرية مثل تحريك النار إنما تُطيِّر منها ما يشبه بالشرر فتشتعل النار فيما لم تشتعل فيه من قبل . فالعنف ليس السبيل لمحاربة الرأي الذي يعدّ عجزاً عن محاربته بالحجة .

(١١) ليس النجاح في الحياة في معرفة النفوس البشرية بل في أن تكون أكبر لباقة ومهارة في وقت معين من منافسك الذي هو أمامك يواجهك . فربما كنت خبيراً بالنفوس ولكن لا تستطيع أن تنتفع بخبرتك .

(١٢) من الصعب أن يعرف الناس بعضهم بعضاً حتى ولو كان داعيهم إلى ذلك العرفان أحسن الميول وأسمى المقاصد فكيف بهم إذا تملكتهم إرادة الشر كما يحدث في كثير من الأحوال عند الحكم على الناس وهذا كما قال رومان رولان : « إن كل انسان لغز يصعب حله سواء أكان يحاول حل لغز نفسه أم لغز نفس غيره ومع ذلك فلا يستطيع الناس أن يمتنعوا عن الحكم على الأنفس والأخلاق إذ أن هذا الحكم جزء ضروري من الحياة